مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المُدَّثِّر

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة المدثر

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المدثر

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧ ﴾

ابتدأت سورة المدثر بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ أي: يا أيها المتلفف، والملتف والمتغطي بثيابه. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: المدَّثِر: لا بس الدثار. وهو ما فوق الشعار. والشعار هو الثوب الذي يلي الجسد[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والدثار: بكسر الدال: الثوب الذي يُلبس فوق الثوب الذي يباشر الجسد[٢] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يا أيها المتدثر بثيابه عند نومه[٣] وقال جلال الدين: أي: المتلفف بثيابه عند نزول الوحي عليه[٤] فهو نداء ووصف يتشابه مع المزمل، كما قال تعالى في سورة المزمل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ فعن جابر بن عبدالله الأنصاري، رضي الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يحدث عن فترة الوحي (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعِبْتُ منه، فرجعت فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾ فحمي الوحي، وتتابع)[٥] مما يبين أنها مكية، وقد نزلت في بداية التكليف بمهام الرسالة النبوية.

وقد بدأ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ والذي يحمل في دلالته الاعتناء، وشد الذهن، بلفت الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بحزم وجد فيما تضمن من توجيه. وقد خُوطِب

(١) الزمخشري، الكشاف (٤/٦٤٥)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/٢٥٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣٥٧)

(٤) جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي، تفسير الجلالين (٥٧٥)

(٥) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤)

عليه الصلاة بدلالة ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ الملتف والمتغطي، وفي العدول عن خصوصية النداء بالنبوة والرسالة، وعن اسمه صلى الله عليه وسلم إلى ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ما يفيد التلطف. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فإذا نُودِي الْمُنَادَى بوصف هيئته من لبسه، أو جلسة، أو ضجعة، كان المقصود في الغالب التلطف به، والتحبب إليه، ولهيئته. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب (قم أبا تراب)[١] ولحذيفة بن اليمان (قم يا نومان) وقوله لعبد الرحمن الدوسي (يا أبا هريرة)[٢][٣] مما يبين لطف وتلطف الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم. وفيه الجمع بين التلطف والأمر الذي فيه عناء ومشقة، وهو تكاليف الرسالة.

وبعد النداء العظيم، المملوء بالتلطف. يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بواجب ومهمة الرسالة النبوية، فقال سبحانه وتعالى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أي: قم بقوة وعزيمة عن حالك التي اعتد عليها إلى إبلاغ الناس بما أمرك الله تعالى به. لأنه عليه الصلاة والسلام عندما سمع الوحي رجع إلى بيته خائفاً، كما ورد في الحديث السابق. فقال (فَرُعِبْتُ منه، فرجعت فقلت: زملوني) فيا أيها المدثر قم مما أخافك من جلال الوحي. وانهض من حالك التي اعتد عليها إلى تخويف قومك من عذاب ربهم إن لم يتبعوك فيما تأمرهم وتخبرهم به. وفي هذا بيان بالشروع في الدعوة العلنية، ومواجهة الناس بالحق، وإعلانه لهم. وهي مرحلة شديدة الأداء والمسؤولية، مما يتطلب لها القيام بفعل الأمر ﴿قُمۡ﴾ الذي يتطلب استجماع قوة النفس والإرادة والعزيمة.

وقد ورد الأمر للتكليف بفعل الأمر ﴿قُمۡ﴾ الذي يحمل دلالة النهوض والعزم، وتعظيم الأمر، والانتقال من الحال المعتادة إلى التكليف بأداء الرسالة، والتي تقوم على أساس الإنذار ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ من عذاب الله تعالى لمن عصى، ولم يستجب لأمر الله تعالى، وحججه وبراهينه عَزَّ وجل. فأنذرهم من الشرك، ومن عذابه، ومما وقع للأمم السابقة. فدلالتها شاملة لكل جوانب النصح للناس بالتخويف من الكفر والعصيان وعدم الطاعة والامتثال لله تعالى فيما يأمر وينهى. وقد ورد التكليف بصيغة الأمر ﴿قُمۡ﴾ الذي أفاد النهوض بعزم وقوة في الإرادة، وفي الأداء. مما يبين مشقة التكليف بالرسالة، وأنها ليست من الأمور السهلة واليسيرة، في مواجهة الناس على اختلاف مشاربهم وتفكيرهم، وتباين مصالحهم، واختلاف أخلاقهم. مما يبين أنه صلى الله عليه وسلم قد حُمِّلَ حملاً ثقيلاً، فاستوجب توقيره، ومطاوعته، وكثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. مما

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٤١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٤٥٢)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢٠/١٢)

يُعلِّم أن الإنسان أنه إذا كُلِّف بأمر فإن هذا يعني: لزوم الانتقال مما هو عليه إلى متطلبات التكليف، بأن يستوفيها بالقيام الذي يتحقق به أداء الواجب. وألا يجعل ما اعتاد عليه قبل التكليف مماثل لحاله بعد التكليف.

ثم أتبع سبحانه وتعالى هذا الأمر بقوله عزَّ وجل ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي: قَدِّس وعَظِّم ربَّك جَلَّ جلاله، بالتقديس والتنزيه، وتوحيده، وعبادته، لأن له كمال الكبرياء، بل ليس لأحد منه شيء. وبما يفيد: أظهر ذلك لغيرك، ليعرفوا ويتعلموا منك تكبير الله تعالى وتعظيمه. وليشمل التكبير والتعظيم في القلب بالاعتقاد، وكذلك بالقول وبالفعل الذي يصدقه العمل، فتصف ربك بصفة التعظيم والإجلال، وتنزيهه عن كل نقص.

ثم عطف على تكبير ربه وتعظيمه الأمر بطهارة النفس في جميع شؤونها وحالاتها. فقال تعالى ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي: طهارة الثياب، وطهارة الكسب، والطهارة من الإثم، والخطايا. فلا تلبسها على معصية، ولا على غدر. وأصلح عملك، وخُلُقك بأحسن ما يكون. فقد وردت الطهارة في هيئة الثياب التي هي ما يلبسه الإنسان، ليجتمع بها العديد من الدلالات والمعاني، كما ورد عن أهل العلم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: فلا تلبسها على معصية، ولا على غدرة. وعنه أيضاً رضي الله عنه: ولا على الإثم، والذنوب. وعن قتادة رحمه الله تعالى: هي كلمة من العربية، كانت العرب تقولها: طهر ثيابك. أي: من الذنوب. وأن العرب كانت تُسمّي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه لدنِس الثياب، وإذا وَفَّى وأصلح، قالوا مُطَهَّر الثياب. وعن الضحاك رحمه الله تعالى: لا تلبس ثيابك على معصية. وقال آخرون: لا تلبس ثيابك من مكسب غير طيب. لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: عملك فأصلح. وعنه كذلك: لست بكاهن ولا ساحر، فأعرض عما قالوا. وقيل أغسلها بالماء، وطهرها من النجاسة(١) ولا تلبس ثيابك على معصية، ولا على غدر. وعملك فأصلح. وخُلُقك فَحَسِّن. وثيابك فَقَصِّر وشَمِّر. وقلبك فطهر. وأغسل ثيابك بالماء وطهر(٢) قال ابن زيد رحمه الله تعالى: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله تعالى أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه(٣) بما يدل على سعة شمول دلالتها التي استوفت الطهارة الحسية والقلبية. مما يبين عظيم عناية الإسلام بالنقاء والطهارة من كل ما يخالف ذلك.

فقد استوعب معنى ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ جميع ما سبق من الدلالات من غير تعارض، ولا تضاد. وهذا من بلاغة البيان في القرآن الكريم، بأن تستوعب الدلالة الأوجه المرادة والمقصودة جميعها، فتستوفي المقصد

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤٠٥-٤١٠) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/١٢١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧٠)

بأوجز البناء والبيان من السياق. مما يدل على الإعجاز البياني للقرآن الكريم. كما يدل على عناية هذا الدين العظيم بنظافة وسلامة المؤمن في جميع حالاته، من الذنوب، والدنس، والخطايا، والمعاصي، وطهارة القلب، والأعمال، والملابس. ليكون صافياً ونظيفاً، وطاهراً في جميع أحواله. لتعطي المؤمن المنهجية في الطهارة. وهو الذي تمثل به عليه الصلاة والسلام، من طهارة النفس، والأخلاق، والثياب، وفي جميع أحواله عليه الصلاة والسلام. فكان القدوة المثالية للمؤمنين في كل شيء عليه الصلاة والسلام.

ثم يعطف سبحانه وتعالى على ما سبق أمراً آخر، فيستوفي به العديد من المعاني والدلالات. فقال تعالى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: وعمل الرجز فاهجر، والرِّجز بالكسر هو العذاب، أي فاهجر مسببات العذاب جميعها. وفي حال الضم، الرُّجز، تكون بمعنى الأوثان. قال القرطبي رحمه الله تعالى وغيره: وأصل الرجز العذاب كما في قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ فَسُمِّيت الأوثان رجزاً لأنها تُؤدي إلى العذاب[١] وقال أهل التفسير هما قراءتان. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. واختلف أهل التأويل في معنى ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ في هذا الموضع، فقال بعضهم: الأصنام. وقال آخرون: بل معنى ذلك: المعصية والإثم فاهجر[٢] وبذلك شملت هجر الأوثان، وهجر جميع ما يتحقق به العذاب، فأفادت التعميم، مع التخصيص للأوثان. وهو أمر بالنهي لجميع الناس، ولكنه ورد في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، لتعظيم النهي. لأنه عليه الصلاة والسلام لا يُقر عبادة الأصنام طيلة حياته، أي: حتى قبل بعثته عليه الصلاة والسلام. بما يدل على أن التوجيه عام، ولكنه ورد في شخصه عليه الصلاة والسلام، وبما يُوضح أن الله تعالى نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وبالتالي فإن غيره مثله، لأنه عليه الصلاة والسلام هو القدوة وهو المبلغ عن الله تعالى.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بركيزة من ركائز الأخلاق، فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ وهو تذكير الغير بالعطية على سبيل التفضل، وإظهار الاستعلاء ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ بما تجود به على أحد من المعروف والعطاء، وذلك بإخباره أو إخبار غيره بما تُعطي وتجود به عليه من العون. وقد أفادت دلالة ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ التَّرَفُّع والاستعلاء بما أعطى وما صنع من المعروف، وتعظيمه له. وبما يجمع جميع مفردات البذل والسخاء والعطاء من أوجه الخير، والتي أعلاها ما يقربهم إلى الله تعالى، وينجيهم من العذاب،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٤٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤١٠-٤١٢)

كالصدقات، وصنائع المعروف بمختلف أنواعها ودرجاتها، من غير أن ترى الكثرة فيما قمت به. لأن في عدم رؤية الكثرة يدفع إلى المزيد المتتالي من أفعال الخير. كما أنها تشجع وتدفع الغير إلى قبول العطاء والتوجيه والنصح. وفي هذا بشارة بالغنائم التي سينالها الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، من غير امتنان عليهم بها.

ومن بلاغة سياقها العظيم أنها حوت العديد من المعاني المتعاضدة. ففي معانيها أربعة أقوال: أحدهما: لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها. والثاني: لا تَمْنَنَّ بعملك، تستكثره على ربك. والثالث: لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه. والرابع: لا تَمْنَنَّ على الناس بالنبوة، لتأخذ عليها منهم أجراً[١] فهي مناهي تصف بأنه عليه الصلاة والسلام لا يطالب أحداً بما يقدمه لهم من جميع أنواع الهدى والخير. وبالتالي ليس هناك ما يمنعكم من متابعته صلى الله عليه وسلم، وهو لا يتمنن عليكم بشيء مما يقدمه لكم من الهدى والخير. مما يبين عظيم هذا الْخُلُق الكريم، وأنه من أخلاقه صلى الله عليه وسلم التي اتصف بها، وأنها من مكارم الأخلاق، التي تُوجِب على المؤمن أن يلزمها مع غيره. فهي تحقق التآلف والتواد بين الناس. وتمنع الكراهة والتباغض. مما يبين أن هذا الدين هو دين مكارم الأخلاق.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى خصلة خلقية عظيمة أخرى، وهي ركيزة أساسية في الثبات على مواجهة المصاعب، ألا وهي خصلة الصبر. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ فاصبر على ما توجه من المصاعب ابتغاء مرضاة ربك، فاصبر على طاعته، وفرائضه، وما تواجه في سبيل نشر الإسلام، وكل هذا إخلاصاً لربك. فقد أفادت دلالة ﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ الإخلاص في الصبر من أجل ابتغاء مرضاة الله تعالى. مما يُعَلِّم المؤمن ربط الصبر بالامتثال والطاعة لله تعالى، وابتغاء ما عنده من الثواب.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ الأمر به. بما يقتضي الوجوب في القيام به. فيا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم عليك بلزوم الصبر على قومك، فيما تواجه منهم، من التعنت والسخرية. وهو تمهيد لمقاومة ما يجده صلى الله عليه وسلم من قومه بالصبر عليهم. ومعنى الصبر: أنه نقيض الجزع. وهو: حبس النفس عن الجزع. وأما التصبر فهو: تكلف الصبر[٢] وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: هو خُلُق فاضل، من أخلاق النفس. يمتنع به من فعل ما لا يَحْسُن، ولا يَجْمُل. وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها[٣] مما يفيد ويُعَلِّم المؤمن أن عليه في مواجهة الصعاب بالصبر، ومقابلة ما يحدث من غيره له بالروية والصبر، المتضمنة للحكمة، والبعد عن الغضب، الذي يبدد العلاقات، ويبدد أو يعطل تحقيق الأهداف. فإن الصبر خُلُق يتعايش

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٢/٨)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٤٣٨/٤-٤٣٩)

(٣) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين، ص (١٦)

به الحكيم مع غيره. ويسأل الله تعالى العون والتوفيق والسداد، فهو خير مُعين على بلوغ الحق والخير. كما يبين هذا أهمية الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، من خلال سيرته العطرة.

وقد أعطت تلك التوجيهات الربانية الأسس والركائز التي يجب أن يلتزم بها صلى الله عليه وسلم لتحقيق النجاح في مهمة رسالته النبوية. كما أفاد ذلك التوجيه الكريم أن هذه قواعد عظيمة للنجاح في مسيرة الدعوة إلى الله تعالى، وكذلك في الجوانب القيادية والإدارية، لمن أراد أن يحقق الأهداف بأفضل المعايير وأحسن ما يكون عليه الأداء، الذي يتحقق به النجاح. وهي القيام بالأداء الذي يتطلب التحول مما كان عليه إلى العزيمة والجدة والنشاط. وأن يستعين بالله تعالى، وذلك بتعظيمه وطاعته، وتمجيده جَلَّ شأنه، والتوكل عليه، فهو المعين عَزَّ وجل لمن أطاعه وعَظَّمَهُ، وعظَّم دينه وشرعه. وكذلك فيها تطهير النفس والقول والعمل من كل شائبة. مع العناية بالنفس في المظهر وفي الملبس، وفي الثياب بالنظافة والطهارة. وأن يتخلق بالكرم الذي خلا من الامتنان على الغير بما يقدمه ويعطيه. ثم التحلي بركيزة الصبر على المكاره والمصاعب، وكذلك الصبر على أعوانه، ومن يتعامل معهم. فإنها أسس النجاح التي تضمنتها السورة المباركة، من الله العزيز الحكيم.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم بعد هذه التوجيهات العظيمة من ركائز القدوة والأسوة الفاضلة التي تَمَثَّلَ بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ينتقل البيان الكريم إلى شأن يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ فإذا نُفخ في الصور. قال مجاهد رحمه الله تعالى: هو شيء كهيئة البوق، وعن قتادة رحمه الله تعالى: الناقور: الصور[١] والنقر في كلام العرب: الصوت، ويعني به النفخة الثانية. وقيل: الأولى[٢] وهو كهيئة القرن، ينفخ فيه الْمَلَك إسرافيل عليه السلام نفخة واحدة. بما يدل على قوتها وكفايتها، فلا يحتاج إلى أن يكررها. فالنفخة الأولى يصعق ويموت

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤١٨-٤٢٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٤٦)

جميع من في السماوات والأرض إلا من استثناهم الله تعالى، كما جاء في سورة الزمر، من قوله عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ممن ثبته الله تعالى عند النفخة الأولى، فلم يصعق، فيبقى على ما هو عليه من الحياة ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ كما ورد ذلك أيضاً في سورة الزمر. وهي النفخة الثانية، نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فيقومون من قبورهم لحسابهم، وهم في كامل صورتهم التي كانوا عليه في الدنيا، حيث يُعيد الله تعالى أجسامهم، وأرواحهم، فإذا بهم يشاهدون مشهد يوم القيامة، الذي هو يوم البعث والنشور والحساب، ليأخذ كل أحد من العباد جزاءه الذي يستحقه من خير أو عذاب.

ثم وصف تبارك وتعالى ذلك اليوم الذي يُنفخ فيه الصور بأنه يوم مهول. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ فإن ذلك اليوم شديد ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي: أن هذه هي الحال التي سيكون عليها أهل الكفر ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ لما فيه من الحقائق التي كانوا ينكرونها، ويكذبون بها في الحياة الدنيا، فهو يوم عسير بما هم فيه من الكرب، ولما يعاينونه مما سيكون لهم من العذاب. بل ومن شدة الوعيد أن السياق الكريم أثبت عسره أولاً، ثم أكده بنفي اليسر مطلقاً، فورد الإثبات أولاً: بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ثم أورد التأكيد بنفي اليسر، فقال جَلَّ شأنه ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وقد حصر شدته على الكافرين، بتعيينهم من دون المؤمنين. بما يفيد أنه على المؤمنين يسير. أي: أن هذه هي الحال التي سيكون عليها أهل الكفر، والتي تدل على عظمة ربكم أيها العباد، ومع هذا تُنكرون البعث، وتشركون معه المخلوق الضعيف العاجز. فأين عقولكم؟ فإنها موعظة تحذيرية جليلة من الله سبحانه وتعالى، ليصحح بها أفهام العباد الضالين عن الحق الظاهر البائن. مما يبين أن حجة الله تعالى قد ظهرت للجميع، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل على نفسه.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصف حال الذي أنعم الله تعالى عليه بما أنعم من عظيم النعم، ثم يتكبر على ما جاء من الحق على رسوله صلى الله عليه وسلم. وبالرغم من أن الموصوف بها هو الوليد بن المغيرة المخزومي، إلا أن السياق الكريم قد ورد من غير تسمية له، ليشمل بذلك كل من شابهه. فقال تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأسلوب تخلية شأن هذا الرجل لعقوبته عَزَّ وجل، بما يفيد نكفيك فيه بما يستحق من العذاب، وكذلك يفيد قوة التهديد لهذا الجاحد.

ومن شدة التهويل والوعيد أن كان مطلع التهديد بقوله عَزَّ وجل ﴿ ذَرۡنِي ﴾ أي: دعني أتفرد بعقوبته التي يستحقها. وهي تفيد قوة الوعيد والتهديد ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ دعني وهذا الذي خلقته وحيداً. لتشمل دلالة ﴿ وَحِيدٗا ﴾ عندما كان في بطن أمه، ثم وحيداً في ولادته، وخالياً من المال والولد، ثم بعد هذه الوحدة والانفراد، قد أنعم الله تعالى عليه بكثرة ما أعطاه من المال والولد، والجاه، وغير ذلك مما يحيط به من الإنعام. ثم يتكبر على من خلقه وحيداً.

ففي سياقها إعادة المخلوق إلى حالته الأولى من العدم، والضعف والانفراد، وقلة الحيلة، ثم الإنعام من الْمُنعِم عَزَّ وجل بما لا يحصيه أحد، ثم يتكبر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى دين الله تعالى. فإنه تعارض في مسلك الجاحد الكافر. مما يثير في النفس التعقل بالتفكر في خِلقَتِه ونشأته، ثم مكتسباته، فجميعها تكشف للإنسان فقره لربه، وعظيم امتنان الله تعالى عليه. فهو أسلوب يعالج حالات كل من اتصف بهذا الوصف.

ثم يزداد البيان توضيحاً بكشف التطورات التي نالته من النِّعم والإنعام الذي كان لا يملك منه شيئاً، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾ ثم بعد أن كان وحيداً جعلت له مالاً كثيراً، بل وصفه بالتمدد ﴿ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾ أي: كثيراً، قد اتسع أثره، فدلالة ﴿ مَّمۡدُودٗا ﴾ تتجاوز الكثرة إلى امتداد أثر المال من سعته وكثرته، فقد وصفه سبحانه وتعالى بالتمدد، الذي يفيد الاتساع في الأثر من كثرته. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والحجور والنعم والجنان، والعبيد، والجواري. كذا كان ابن عباس يقول[١] مما يبين عظمة دلالة ﴿ مَّمۡدُودٗا ﴾ التي أظهرت التمدد في السعة والتنوع. ومن دقائق البيان أن الله تعالى قد نسب الجعل له عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾ وذلك تذكيراً بأن الْمُنْعِم والجاعِلُ له ولغيره هو الله تبارك وتعالى. فكان الأولى به الطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم تلاه الامتنان عليه بالولد بعد أن كان وحيداً. فقال تعالى ﴿ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴾ وأبناء كثيرون، حتى بلغ شأنهم من كثرتهم أنهم ﴿ شُهُودٗا ﴾ أي: أن حضورهم كان حضوراً متتابعاً، بحيث لا يغيبون ولا ينقطعون عنه في شيء من تصرفاته لكثرتهم، بل وأفادت طاعتهم له، بتوفيق الله تعالى، وإنعامه عليه بهم. وكذلك من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٧/١٩)

الإنعام عليه ما ورد في قوله تعالى ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴾ أي: وسعت عليه، وبسطت له في معاشه بسطاً، جعله يتمكن من مراده. والتمهيد يفيد إزالة العوائق من طريقه ومراده. بل من سعة دلالتها أنها تشمل: تيسير تجارته، وتملكه من الأشياء في تنوعها وكثرتها، ونفاذ كلمته بين قومه، لوجاهته، وكذلك عند غيرهم، وذلك لمكانته بين قومه، وكثرة أملاكه. فكل يريد أن يتقرب منه، ولا يرفض له طلباً. بل من المبالغة فيما أمده الله تعالى بما أنعم عليه أن ورد التمهيد مرة فعلاً من الله تعالى ﴿ وَمَهَّدتُّ ﴾ ومرة وصفاً، وهو ﴿ تَمۡهِيدٗا ﴾ والتي أفادت التأكيد، والمبالغة في وصف فعل التمهيد إلى أقصى دلالاته.

ثم يخبر تبارك وتعالى أن هذا الموصوف بهذا الإنعام العظيم والكبير، لم يحمد الله تعالى على هذا الإنعام، ويكتفي به، بل كان ذا طمع وشره في المزيد. فقال تعالى ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴾ ثم بعد كل هذا الإنعام يطمع في الزيادة من المال والولد. مما يبين حالة الإنسان الذي لم يلج الإيمان في قلبه، بأنه لا يغتني ولا يكتفي بشيء، كما قال صلى الله عليه وسلم (لو أن لابن آدم وادياً من ذهب، أحب أن يكون له، واديان)[١] بما يفيد أنه كان الأولى بهذا الإنسان أن يكون شاكراً لربه عَزَّ وجل، ولكنه كان يطمع في المزيد. مما يفيد التحذير من خلال تفسير وتحليل سلوك هذا الإنسان، الذي أغراه الخير حتى طغى وطمع في المزيد. مما يجب على العبد أن يحذر من هذا المسلك عند ورود النعمة وتكاثرها، وألا يكون مثل هذا النوع من الناس. وألا يجعل النعمة تقوده إلى البطر والأشر، ويظن أن ذلك من تدبيره لنفسه، فيصيبه الغرور الذي يُفسد عليه دينه وآخرته.

ثم ينتقل الوصف لشخصية هذا النوع من الناس في مجال علاقته بدين ربه عَزَّ وجل، فقال سبحانه وتعالى ﴿ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴾ فقد كان الشأن منه العناد لحجج ربه عَزَّ وجل. ﴿ كَلَّآ ﴾ فإن الأمر ليس كما كان يجب عليه من شكر النعمة، والطاعة لربه سبحانه وتعالى، والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم، فقد كان معانداً لحجج الله تعالى. وقد بدأ البيان الكريم بدلالة ﴿ كَلَّآ ﴾ التي أفادت قطع الرجاء لطمعه، وإبطال الاستجابة لمراده، وردعاً له عن شجعه في الزيادة على ما هو فيه من خير ممدود. فهي قطع للرجاء عما كان يطمع فيه. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴾ إنه كان مكذباً ومعانداً لحجج الله تعالى. فقد أفادت دلالة العناد على معرفته للحق وإنكاره. لأن العنيد هو المناهض لما يعرف.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الجزاء الذي يستحقه، وسيوافيه الله تعالى به. فقال جَلَّ جلاله ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ سأجعله بما أكلفه من العذاب في تصاعد متتالي. أي: سأكلفه وأُحَمّلُهُ مشقة متعاظمة من العذاب

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٤٣٩) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (١٠٤٨)

المتتالي، الذي لا ينقطع، ولا راحة له فيه. ومن فوائد الدلالات البيانية: أن الإرهاق في كلام العرب: أن يُحمَل الإنسانُ على الشيء[١] مُكرَهاً. وأما الصعود: فإنه جبل في النار يُكَلَّفُون أن يَصْعَدُوه[٢] مما يبين شدة العذاب الذي سيلاقيه هو وأمثاله. مما يفيد التحذير للكافرين من ذلك الطغيان، وأن عليهم أن يُطيعوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه خير لهم من العذاب الشاق المهين.

ثم يخبر الله تعالى بحال هذا الإنسان مع آيات ربه العظيمة عندما كان في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: أنه تأمل، وهو معنى ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ وهي عملية التأمل التي يستغرق فيها الذهن في التفكير ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: يُقدر القول الذي سيقوله طعناً في القرآن العظيم. فقد أجهد نفسه، وبذل غايته في التفكير من أجل أن يطعن في القرآن بالافتراء الكاذب ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ فَلُعِن بالذم من الله تعالى على ما كان فيه من تقدير القول الذي سيطعن به في القرآن العظيم. ثم يزداد المقت من الله تعالى عليه، فقال عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ثم لُعِن لعناً بعد لعن. بما يفيد: وكذلك قد تحققت فيه العقوبة بعد العقوبة، لإفادة التتالي والتعاقب لها، أي أنها متتالية في تنوعها وشدتها، فلا تنقطع عنه.

ثم يزداد الكشف عن قوة تفكيره وتأمله في أوجه الطعن في القرآن العظيم، فقال تعالى عنه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ثم زاد في التأمل بالنظر، فيما يُدلي به من الطعن في القرآن، وأيضاً تصويب النظر لمن يحيطون به ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ثم قَطَّب، وقبض وجهه، بما يعني ويفيد قوة الإمعان في التفكير الذي أجهده جهداً قد فاق الجهد الطبيعي، أي: أفاد المبالغة في الحال التي وصل إليها من التفكير حتى قَطَّب وجهه. فجمع بين ﴿عَبَسَ﴾ الذي هو قَطَّب وجهه. وبين البسر ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: أنه كالح كاسف عابس. قال المفسرون: كَرَّه وجهه، ونظر بكراهية شديدة، كالمهتم، المتفكر في الشيء[٣] بما يفيد قد تغير لون وجهه من التقطيب، وتغيرت ملامحه كذلك.

ثم انتقل حاله إلى وضع وشأن آخر. فقال عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ثم أدبر عن الايمان، مستكبراً. بما يفيد أن الذي منعه هو الاستكبار، أي أنه عرف الحق على حقيقته، وأيقن به علم اليقين، ولكن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٨/١٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٧/٢٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٥/٨)

حال بينه وبين الإيمان والتصديق به هو الاستكبار. مما يبين خطورة الاستكبار في جميع مناحي الحياة، فإذا كان الاستكبار قد منعه من الإيمان، فكيف بأثر الاستكبار على ما هو دون الإيمان. وإذا كان الاستكبار يُدخله النار، ويصرفه عن الجنة، فكيف بأثره فيما هو دونه. مما يبين التحذير من الله تعالى، بأن لا يجعل العبد للاستكبار مكاناً في قلبه. فإن التكبر هو القوة التي تصرف المتكبر عن الحق برده والطعن فيه، ثم يضع المتكبر نفسه في الحضيض.

ثم يخبر الله تعالى بما قاله هذا المعاند المستكبر بعد ذلك التفكير العميق. فقال تعالى عنه ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ فإن هذا القرآن مأثور ومنقول عن السحرة. أي: أن محمداً صلى الله عليه وسلم ينقله عن غيره من السحرة. أي: فإنه يخدعكم، فيُظهر لكم الباطل في صورة الحق. ثم يؤكد هذا الافتراء بالمزيد من الطعن في القرآن العظيم وفي الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ أي: أن هذا القرآن هو من كلام الناس، فليس هو كلام لله تعالى. مما يبين أن الاستكبار جعل منه منكراً للحق، بل يُصوره ويصفه ويفتري عليه بما يعلم أنه ليس كما قال، فيخالف بقوله ما هو في حقيقة قلبه. بسبب أنه يأنف من أن يتابع الرسول صلى الله عليه وسلم. إذ أنه عربي، ويعلم من قوة فصاحة وبلاغة القرآن، وقوة مضامينه أنه لا يمكن أن يكون قولاً من أقوال البشر، بل حتى ولو اجتمع الإنس مع الجن، وكان بعضهم لبعض ظهيرا لَمَا استطاعوا أن يأتوا بمثله، كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ فلو أن الإنس جميعاً، ومعهم الجن أجمعين، فاتفقوا على قلب رجل واحد بأن يأتوا بمثل هذا القرآن المعجز، لعجزوا وما استطاعوا، وذلك لإعجازه الذي لا يستطيع عليه الخلق من الإنس والجن حتى ولو تظافرت جهودهم أجمعين، فتعاونوا على ذلك. وفي هذا دلالة وحجة وبرهان ساطع على أن القرآن ليس من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كلام أحد من البشر.

ثم يخبر الله تعالى بما أعده لهذا المستكبر الذي افترى الكذب على آيات الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ سأدخله جهنم التي تشويه شوياً، فيصطلي بشدة حرارتها، ويحترق بنارها. وسقر هو اسم من أسماء النار. ثم يُعَرِّفُ الله تعالى بسقر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ سؤال استفهام، يفيد تهويل شأنها وحالها وصفتها وقوتها. فإن سقر ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ فإنها لا تُبقي شيئاً من الإنسان إلا وتحرقه بعد أن تصليه بقوة حرارتها. فلا تترك لهم لحماً، ولا عظماً، ولا عصباً إلا وقد أحرقته. فعن مجاهد رحمه الله تعالى: لا تُميت، ولا تُحيي. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لا تُبقي من فيها حياً،

ولا تذر من فيها ميتاً، ولكنها تحرقهم كلما جدد خلقهم[١] فهو عذاب متجدد ومتتالي، فلا ينتهي. فنسأل الله تعالى العافية، والنجاة لنا ولجميع المسلمين، وأن بدخلنا الجنة بسلام.

ثم يقول تبارك وتعالى عن هذه النار بأنها ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: مُغيرة للبشرة من شدة حرقها المتجدد. ثم قال تعالى عن عدد خزنة جهنم ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فعدد خزنتها تسعة عشر من الملائكة. الْمَلَك مالك، ومعه ثمانية عشر. كما قال تعالى في سورة الزخرف ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ فقد أظهر وبين هذا العدد لخزنة جهنم، أنهم أصحاب عظمة في أوصافهم التي تجعلهم بهذا العدد، وأن هناك حكمة عظيمة أرادها الله تعالى بهذا العدد، كما سيأتي بيانه من الآيات الآتية.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١)﴾

بعد بيان الله تعالى لعدد خزنة جهنم أنهم تسعة عشر، يذكر الله تعالى بعد ذلك علة وسبب هذا العدد من خزنة جهنم. فقال جَلَّ شأنه ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: شديدي الخلق، لا يُقاومُون، ولا يغالبون[٢] فإنهم غلاظ شداد، لا يعلم مقدار قوتهم إلا الله سبحانه وتعالى. ثم ذكر تبارك وتعالى سبب وعلة هذا العدد من الملائكة ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإن جعلنا هذا العد من الملائكة، فتنة واختباراً للذين كفروا. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم، فتغلبونهم، فقالوا هذا القول الجريء، المملوء بالاستهزاء والسخرية. ولكن على خلافهم ونقيضهم أهل الإيمان، فقال تعالى ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ليدرك به أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن ما جاء به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم هو حق لا ريب فيه، لأن عِدَّتهم في التوراة تسعة عشر، ثم قال تعالى عن أثر ذلك على أهل الإيمان ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ ويزداد المؤمنون الذين آمنوا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤٣٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧٣-٤٧٤)

ومن يأتي بعدهم إيماناً وتصديقاً بهذا العدد لخزنة جهنم، وبما جاء به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فيزدادوا إيماناً بأن هذا الدين حق لا ريب ولا شك فيه. فيتعاضد إيمان الصحابة مع إيمان أهل الكتاب الذين آمنوا وصدقوا، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، لأن هذه الموافقة في العدد دليل بأنه من عند الله تعالى.

ثم يؤكد ويقرر سبحانه وتعالى ما تقدم من استيقان أهل الكتاب المؤمنون، من خلال نفي الشك عنهم تماماً. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يشك أهل الكتاب ولا المؤمنون في ذلك، فيقرر عَزَّ وجل إيمانهم الذي انتفى منه الشك والريبة، مما يعني ويفيد أنهم يصدقون بذلك، بل ويقر به كل من آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، بأنه حق كما أخبر به عليه الصلاة والسلام، لأنه لا ينطق عن الهوى، بل وحي من الله تعالى.

وأما الذين كفروا وأنكروا فهم في غمرة من تساؤلات الشك والريبة، ليتحقق منهم الكفر بهذا العدد، وهم صنفان: أحدهما: أهل النفاق ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾أي: مرض النفاق. وهم المنافقون. والصنف الثاني: هم ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي: عموم المكذبين المنكرين بجميع أصنافهم، من اليهود والنصارى، والمشركين وغيرهم، فيقولون ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أي: أي شيء أراد الله تعالى ﴿ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أي: بهذا العدد ﴿ مَثَلًا ﴾ أي: حديثاً. فما لحكمة في ذكر هذا العدد المستغرب. والمثل بمعنى: الحديث، أي: استغراب هذا الحديث الذي هو المثل من العدد.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بالجواب على ذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي: بمثل ذلك الإضلال الذي سبق بيانه، بأن أضل من أنكر عدد الخزنة والنار، ووفَّق وهدى من صدق بما جاء عن الله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي: بمثل ذلك يصرف سبحانه وتعالى من يشاء من عباده المكذبين المنكرين، فلا يوفقهم للإيمان، جزاء لكفرهم ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ويوفق ويهدي من يشاء من عباده للحق. ثم يُهَوِّل ويُعَظِّم سبحانه وتعالى جنوده، بأسلوب التجهيل بأعدادهم وصفاتهم، وإخفاء عددهم من كثرتهم، فقال تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ فلا يعلم جموع جنود الله تعالى من الملائكة، وغيرهم من الخلق إلا هو سبحانه وتعالى، فلا أحد من الخلق لديه شيء من العلم بذلك.

مما يفيد تعظيم وتفخيم العدد، وكمال القدرة، والهيئة لجنوده عَزَّ في علاه، ونوع التسلط وقوته. وبهذا التجهيل لكم أيها العباد فإن واجبكم هو الإيمان والتصديق، والامتثال والطاعة. ثم ينقل عباده إلى خلاصة ذلك،

بأنه تذكرة لمن أراد التذكرة، فقال تبارك وتعالى ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ فإن ما سبق بيانه عن سقر، وعدد الملائكة الذين هم عليها إلا تذكرة، أي: تتذكرون فتتعظون بها. بل جمع قوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ جميع الدلائل والحجج، وعلى رأسها القرآن العظيم بأنها تذكرة وموعظة للبشر. فواجبكم ومهمتكم أيها الناس هو الاتعاظ، والتصديق وليس الاعتراض، وذلك لجهلكم بالغيب، وبقوة الله تعالى، وما يمنحه لمن يشاء من عباده.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ثم يقسم الله سبحانه وتعالى بالقمر ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكروا وزعموا بأنهم يستطيعون مقاومة خزنة جهنم، لاعتبار أن عددهم تسعة عشر. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ليس القول كما يقول من زعم أنه يكفي أصحابه المشركين خزنة جهنم التسعة عشر(١) فأفادت دلالة ﴿كَلَّا﴾ الردع والإبطال لما تضمنه ما قبله من القول.

ومن سعة دلالة البيان أن دلالة ﴿كَلَّا﴾ تستوعب وتستوفي التشويق لما بعده أيضاً من القسم وجواب القسم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ويجوز تقديمه إذا أريد التعجل بالردع والتشويق إلى سماع ما بعد(٢) وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أن ﴿كَلَّا﴾ صلة للقسم، والتقدير: أي: والقمر، وقيل: والمعنى: حقاً والقمر(٣). مما يبين عظمة براعة موقعها بين ما قبلها وما بعدها، ليظهر بذلك الإعجاز البياني لتراكيب كلمات وألفاظ القرآن الذي بلغ كمال الإعجاز.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٤١/٢٣)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٥/١٢)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٥/١٩)

ثم أعقب ﴿كَلَّا﴾ قوله تعالى ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ الذي أقسم الله تعالى به، ثم عطف عليه الليل حال إدباره. فقال تعالى ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: والليل وقت وحال إدباره. وهي الحالة التي ينقضي فيها الليل، ليسفر وقت الفجر والصباح. وفي هذا شد الانتباه والذهن للتأمل والتدبر والتفكر في هذه الحالة العظيمة العجيبة التي يسير فيها الليل للانقضاء بتدرج عجيب، ويدخل الصبح ثم النهار بتدرج مبهر لمن تأمل تلك الحالة التي تبين وتظهر عظمة المدبر سبحانه وتعالى في خلقه، ومن ذلك: أيضاً ذلك الزمن من الليل حين إدباره في تدرج عجيب. فأقسم الله تعالى بهذا الوقت لإظهار عجائب قدرته جَلَّ جلاله. مع ما سبقه، وهو القمر، الذي يضيء في الليل، ومع ذلك يتولى نوره، ليظهر نور الصباح، فإن اقتران القمر مع إدبار الليل فيه لفت الانتباه لهذه العلاقة العجيبة. مما يبين أهمية التدبر في تصريف الله تعالى للكون، فإنها تُحقق الإيمان والخضوع لله تعالى، وتزيد من تعظيم العبد لربه عَزَّ وجل، والعمل بطاعته، وبذل الجهد إلى أقصاه في تحقق رضاه تبارك وتعالى.

ثم يعطف الصبح على ما سبق حين ظهوره بعد إدبار الليل وذهابه، فقال تعالى ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ والصبح إذا أضاء وبان وظهر بنوره المشرق. ومعنى: أسفر أضاء وأنار، ونقول وجه مُسفر. أي: وجه مضيء ومنير. وهو الشأن الذي يكشف اللهُ تعالى به الليل، ويُظهر به النور. وقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: سفر وجه فلان: إذا أضاء. وأسفر وجهه حُسناً، أي: أشرق. وسفرت المرأة: كشفت عن وجهها، فهي سافر[1] وفي هذا أيضاً شد الانتباه ولفت الفكر لهذه النعمة الجليلة، ولهذه القدرة العظيمة، التي تستوجب الإذعان لخالق الأرض والسماء، والإيمان والتصديق بالغيب، وبكل ما يأتي عن الله عَزَّ وجل. فإن مشاهد المخلوقات، وعظيم تدبير الله تعالى لها قياس عظيم لكل ما يأتي عن الله تعالى مما غاب عن الناس، فلا يرونه. ومن ذلك الملائكة، وعظمتها، وما أودعه الله تعالى فيها من الخصائص التي يقصر العقل البشري عن تصورها، وتخيلها. وكذلك الجنة والنار، والبعث والحساب، والجزاء. فمظاهر الكون العظيمة تُثبت صدق وصحة جميع ما يأتي ويَرِدُ عن الله تعالى. فإن ذلك البيان هو لفت الانتباه لعظمة ما خلق، وعظيم تدبيره سبحانه وتعالى، وأنها قوة وحجة للتصديق بالغيب. مما يبين أن التأمل والتدبر يصل بالإنسان إلى الإيمان الصادق الذي لا يساوره الشك، فيتحقق به التوحيد، بإفراد الله تعالى بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي جواب القسم، فيُعظم الله تعالى به خَلْقَهُ للنار، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ إنها لإحدى العظائم، مما يبين كثرة العظائم، فإن هذه النار لإحدى العظائم والدواهي. قال ابن كثير رحمه الله تعال

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٥٥)

﴿ٱلۡكُبَرِ﴾: أي: العظائم، يعني النار. قاله: ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغير واحد من السلف[١] وفي هذا تعظيم، يحمل دلالة الإنذار والتخويف والتهديد. مما يستوجب أن يستغفر هؤلاء الْمُخَاطَبين، ويتوبون لربهم عَزَّ وجل، بما ظهر لهم من الحق الواضح المبين.

وجميع هذا البيان هو من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم، ويعظهم، ويحذرهم، بل ويُثبت لهم الحق بالدليل والبرهان والحجج القولية والكونية. فالحمد لله رب العالمين على نعمة هذا البيان العظيم، وهذا الإنعام الكبير الذي لا يُعَد، ولا يُحَد.

ثم يخبر الله تعالى عن المقصد مما سبق من البيان عن النار. فقال تعالى ﴿نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ﴾ فهذه النار التي تم وصفها لكم، هي من أجل إنذار البشر بما سيكون لمن كفر. وكل أحد هو مسؤول عما يكون عليه من الكفر أو الإيمان ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ فمن شاء منكم أن يؤمن ويطيع، ومن شاء منكم أن يكفر. فأثبت الله تعالى بهذا البيان مسؤولية الإنسان عن نفسه في اختياره طريق الخير والحق، أو اختيار طريق الشر والباطل. فدلالة قوله تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾ إثبات أن للإنسان مشيئة في الاختيار، بما منحه الله تعالى من العقل، والإرادة، وبما أرسل له من الرسل بالحجج والبراهين. وأن الإنسان هو الذي يختار بنفسه ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ وذلك بقبول ما أُنذر به، فيأخذ نفسه بلزوم والتزام الطاعة، والعمل بما يُقَرِّبُه من ربه تبارك وتعالى ﴿أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ أو يتأخر بالابتعاد عن قبول الحق. ومن دقائق السياق أنه سبحانه وتعالى سمَّى القبول بالحق تقدماً ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ وسَمَّى عدم القبول بالتأخر ﴿أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ لأن التقدم، يحمل صفة القبول، والطاعة، والامتثال والالتزام. وأما التأخر فإنه يحمل صفة وهيئة التباعد، والنأي عن الحق.

وفي سورة الشمس، أوضح تبارك وتعالى أنه عَزَّ وجل أفهم وفطر كل نفس على إدراك الحق من الباطل، فقال تعالى ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. وكذلك أوضح تبارك وتعالى ذلك في سورة التكوير، فقال عَزَّ وجل ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧٦)

المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته.

فإن الله تعالى لا يريد لعباده الكفر، ولا المعاصي، ولذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وكل نفس بما كسبت رهينة، ولذلك يكون في الناس العاصي بإرادته، والمطيع بإرادته، وفق ما أعطاهم الله تعالى من المشيئة. فتنزه الله تعالى من أن يريد لعباده المعصية، ثم يعاقبهم عليها، كما قال تعالى في سورة: آل عمران ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ وتكررت في سورة الأنفال، وفي سورة الحج، وكما قال تعالى في سورة: فصلت ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ مما يبين أن الله تعالى لا يظلم عباده أبداً بغير ما اكتسبوا، بل يحب الطاعة والمطيع، ولذلك أنزل الكتب، وأرسل المرسلين، بل ويهدي من أناب إليه، بقبوله بعد تركه للمعصية، مهما كانت تلك المعصية في عظمتها. والحمد لله رب العالمين. اللهم اهدينا وأصلحنا، وألهمنا الصواب.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن حال كل أحد فيما اختاره من التقدم أو التأخر. فقال عَزَّ وجل ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ فكل نفس متعلقة بما اختارت عند الحساب والجزاء. فهي مرتهنة بكسبها من الطاعة أو المعصية، ومُؤاخذة بما كان منها. مما يفيد: فلا يلوم الإنسان إلا نفسه. ثم يستثني سبحانه وتعالى من هذا الارتهان المؤمنين ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإن لهم الاستثناء من الارتهان والانقياد بما كان منهم. بما يفيد التجاوز عن سيئاتهم، ومكافأتهم بدخول الجنة. قال مجاهد رحمه الله تعالى: لا يحاسبون. وقال ابن زيد رحمه الله تعالى: أصحاب اليمين لا يرتهنون بذنوبهم، ولكن يغفرها الله تعالى لهم. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في أصحاب اليمين، الذين ذكرهم الله تعالى في هذا الموضع. فقيل هم الولدان. وقيل أطفال المسلمين[١] وقيل: كل نفس من أهل النار مرتهنة في النار. إلا أصحاب اليمين، وهم المؤمنون، فإنهم في الجنة. قال الضحاك[٢] وقال جلال الدين السيوطي، والمحلي: وهم المؤمنون، فناجون منها[٣] فدلالتها تبين أنها شاملة للولدان، لأنهم ماتوا على الفطرة، فهم دون التكليف. وتشمل المؤمنين، لأن الله تعالى برحمته يغفر لهم. وقد ورد في سورة الحاقة قوله تعالى ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ فعطف الله تبارك وتعالى أصحاب اليمين الذين هم الأبرار

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤٤٨-٤٤٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/١٢٩)

(٣) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٥٧٦)

على السابقين الذين هم المقربون. وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، وهم أصحاب المنزلة الرفيعة، الذين منزلتهم على اليمين. لأن جهة اليمين تدل وتفيد على علو المكانة والمنزلة، وعظيم التكريم والحفاوة.

وكذلك قال تعالى عن أصحاب اليمين في سورة الواقعة ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ فلك السلامة من كل غم وكدر وخوف. بمعنى أنك في أمان الله سبحانه وتعالى وحفظه وعنايته. وبالتالي فأنت سالم من كل غم وكدر. فلا خوف عليهم من قادم، ولا حزن عليهم من فائت. وورد في ذلك ثلاثة دلالات: أحدها: فسلامة لك من العذاب. عن ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: تُسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين. قاله عطاء رحمه الله تعالى. والثالث: أنك ترى فيها ما تحب من السلامة، وقد عَلِمتَ ما أُعدَّ لهم من الجزاء. قاله الزجاج(١) وليس هناك ما ينفي اجتماع تلك الدلالات، بل إنها متوافقة ومتعاضدة. إذ أن أوجه دلالتها تحمل جميع تلك المعاني، وهي من بلاغة القرآن، إذ تقل ألفاظه وتكثر أوجه معانيه ودلالاته في تظافر من غير تعارض.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن حال أهل اليمين وهم في جنات النعيم. فقال تعالى ﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي: يتساءلون فيما بينهم ﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ عن حال الكفار الذين هم في دركات جهنم. وبالتالي أفاد قوله تعالى ﴿ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أنه تساؤل فيما بينهم، وامتدت دلالته إلى أن يكون سؤالاً لأهل الجحيم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يسألون المجرمين، وهم في الغرفات، وأولئك في الدركات(٢) وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: يجوز أن يكون على بابه: أي يسأل بعضهم بعضا، ويجوز أن يكون بمعنى: يسألون: أي: يسألون غيرهم ﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ فعلى الوجه الأول: يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين. وعلى الوجه الثاني: تكون زائدة: أي: يسألون المجرمين(٣) فموقع ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أعطاها ومنحها تلك الدلالتين، وهذا من براعة السياق في تحقيق الحالتين. فالسؤال بينهم عن أولئك لا ينفيه السياق، وسؤالهم للمجرمين يؤكده ما بعده ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ ما الأسباب التي أدخلتكم في سقر. وسقر هو اسم من أسماء جهنم. كما ورد سابقاً في آيات هذه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩٦/٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧٦/٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٢/٥)

السورة، بأنها لا تُبقي شيئاً من الإنسان لا أحرقته، بعد أن تصليه بقوة حرارتها. فلا تترك لهم لحماً، ولا عظماً، ولا عصباً إلا وقد أحرقته، ومع الحرق إلا أنه يتجدد بقدرة الله تعالى، فلا تفنى أجسادهم.

فَيُجِيب أهل النار بنفي طاعتهم لله تعالى في الدنيا، فإنه هو السبب في دخولهم سقر، وبدأوا بنفي أداء الصلاة التي هي عماد الدين ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ أي: لم نكن من المؤمنين الذين يصلون. فقد نفوا بذلك عبادتهم لربهم عَزَّ وجل من خلال أعظم العبادات التي هي الصلاة. فنفوا عن أنفسهم ما اشتهر به المؤمنون من العبادات، وهي الصلاة، التي كانت تميزهم بمظهرها الظاهر لغيرهم، والتي قد عُرِفوا بها، فكان غيرهم يعرفهم بأنهم أهل الإسلام بتلك الشعيرة العظيمة التي هي الصلاة. ثم عطفوا على عدم الصلاة عبادة أخرى، وهي ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ ولم نكن نعمل ما يعمله المؤمنون من إطعام المساكين، ليعم الزكاة والصدقات، وعموم أوجه الإطعام. بما يبين ما كان منهم من البخل. ثم ذكروا ما كان منهم من عموم الباطل ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ وكنا نجاري أهل الباطل والغواية في غوايتهم وباطلهم. والخوض هو الدخول في الشيء، وغالباً ما يكون في الكلام الباطل. ثم ختموا حالهم من الكفر، بنفيهم للإيمان والتصديق بيوم القيامة ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي: ننكر يوم القيامة، ونكذب بها، مما ترتب عليه الكفر بالحساب والجزاء، والجنة والنار. فأثبتوا على أنفسهم الكفر بكامله. ثم أخبروا عن استمرارهم على هذا الباطل حتى ماتوا وانتهت حياتهم ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ حتى أدركنا الموت. فمتنا على الكفر. ويُطلق الموت على اليقين لأنه معلوم لا ينكره أحد. وفي هذا بيان من الله تعالى لحال الكافرين في الآخرة. ليفيد الإنذار والتحذير من ذلك اليوم، وتلك الحال.

ومن دقائق البيان أنهم ختموا مسلكهم بنفي الإيمان الذي هو أساس الدين، وبدأوا بالصلاة التي هي عمود الدين، وذكروا بينهما بقية ما كان من حالهم.

ثم يخبر الله تعالى عن بقائهم على ذلك المصير من النار، إذ انقطعت عنهم كل أسباب النجاة، حتى شفاعة الشافعين. فقال جَلَّ جلاله ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ فلا تنفع هؤلاء الذين اتصفوا بهذا الوصف أي شفاعة كانت، لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن كان أهلاً للشفاعة. بما يبين أنه قد تقطعت عنهم السُّبُل. فاحذروا أيها الناس بموعظة ربكم لكم.

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصف حال هؤلاء في الدنيا من صدودهم عن مُوجِبات الإيمان، وركونهم إلى الكفر والبغي، بالرغم من الحجج والبراهين والمواعظ التي تنهال عليهم. فقال تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ فما لهؤلاء الكفرة صادين، معرضين عما يذكرهم بالحق، وأعظمها القرآن العظيم. وهو سؤال تعجب من حالهم المخالف لما يجب، بالرغم من أن التذكرة ظاهرة لهم من آيات الله تعالى الكونية، وآياته المقروءة والمسموعة من القرآن، ومواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم، وحال الأمم السابقة.

ثم من قوة إعراضهم عن الحق المبين أن شبههم الله تعالى بالحمر الوحشية. فقال تبارك وتعالى ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ فقد كان حال فرارهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من القرآن العظيم والحجج والتذكرة كحال الحمار الوحشي النافر المذعور. وورد الجمع للحمار ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ﴾ باعتبار كثرتهم، وصفتهم كصفة الحمر وهي ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ أي: نافرة مذعورة ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أي: هاربة من رمية رامي قد رماها، أو أسد، أو نحو ذلك قد أذعرها. والفرار شدة الهروب. والقسورة هو الرامي. فحالهم كحال الحمر الوحشية في أصلها، وهي هاربة مذعورة من رامي قد رماها بما قهرها، وأذعرها حتى تولت هاربة. وكأنما رامي قد أذعرها فأنفرها. مما يبين أن بُغْضَهم للحق وسماعه كمن أصابه هيجان الذعر. نتيجة الحسد والاستعلاء والكبر الذي تطاول بهم حتى جعلهم يتطاولون على الحق. فأظهر الوصف قوة المبالغة في النفور عن الحق الذي فيه مصلحتهم ونجاتهم. مما يفيد التحذير من أخلاق الاستكبار والحسد، وألا يجعل الإنسان من الاستكبار مانعاً له عن الحق، بل يُوطِّن نفسه على التواضع، ويربي نفسه على الإذعان للحق في كل أمر وشأن، وأعلاه التواضع لله تعالى ولدينه، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه عن قوة تطاولهم حتى بلغ بهم الأمر أن كل واحد منهم يُريد كتاباً خاصاً به ينزل عليه من السماء. فقال تعالى ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ فإن حالهم هو: أن كل واحد منهم يريد أن يُؤتى كتاباً ينزل عليه من السماء، لأنهم لا يريدون تصديق الحق من أي أحد نتيجة الاستكبار والحسد، ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ ﴾ أي: أن يُعطى ﴿ صُحُفًا ﴾ أي: كتاباً ﴿ مُّنَشَّرَةً ﴾ أي: منشوراً لكل واحد منهم، فينزل عليه من السماء بمثل ما أنزل الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. مما يبين قوة العناد والاستعلاء على الغير، وعلى الحق.

ثم ينفي سبحانه وتعالى إذعانهم وإيمانهم فيما لو أنزل على كل واحد منهم كتاباً من السماء. فقال عَزَّ وجل ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ ليس الأمر كما يزعمون فيما لو أنزلنا عليهم كتباً من السماء لصدقوا

وآمنوا. فقد أفادت ﴿كَلَّا﴾ نفي ما قبلها. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ما الأمر كما يزعمون من أنهم لو أُوتوا صحفاً منشرة صَدَّقُوا[١] ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فإن شأنهم هو أنهم لا يخافون عقاب الله عَزَّ وجل، لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وما يتبعه من الحساب والجزاء، والجنة والنار. مما دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله تعالى. فعدم التصديق باليوم الآخر، جعلهم ينكرون كل شيء. مما يبين عظيم فائدة الإيمان والإقرار بالغيب، والذي منه البعث، والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار، مما يبين أن لهذا الإيمان باليوم الآخر تبعات على السلوك وعلى الطاعة لله تعالى، وعلى جميع تصرفات الإنسان في السراء، وفي الضراء، وفي الظاهر، وفي الباطن، وفي الخلوات وغيرها من أحوال الإنسان. فإن نعمة الإيمان نعمة عظيمة وجليلة في ضبط مسلك وأخلاق وتعاملات المؤمن. فنحمد الله تعالى على هذه النعمة العظيمة.

ثم ينفي الله تبارك وتعالى ما يقوله الصادون عن هذا القرآن العظيم من الوصف الذي لا يليق بكتاب الله العزيز الحكيم، فقال جَلَّ شأنه ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ ليس الشأن والأمر كما قاله أولئك الكفرة في القرآن من أنه سحر، وأنه قول يؤثر عن غيره، وأنه قول بشر، بل ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ فإنه تذكير ومواعظ وأحكام، فإنه تذكرة من رب العالمين لعباده، فهو كتاب يتذكر ويتعظ بمواعظه العباد. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فمن أراد أن يتعظ به اتعظ، ومن أراد أن لا يتعظ فشأنه. بما يفيد أن الخيار لكم في أن تتذكروا وتتعظوا بمواعظه، وتعملوا بأحكامه، وأوامره، وتنتهوا عن نواهيه، أو تمتنعوا وتكفروا.

ثم يختم الله تعالى سورة المدثر المباركة العظيمة ببيان عظيم عن مشيئته، وإرادته بما يشاء في شأن خلقه، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ فمن قوة امتناعهم فلن يهتدوا إلا أن يريد الله تعالى بفضله لهم الهداية، فيلزمهم بها، فيحققها فيهم لو أراد ذلك بقوة مشيئته عَزَّ وجل. مما يبين أن كفر الكافر لا يخرج عن مشيئة الله تعالى، فلو شاء لأرغمه عَزَّ وجل على الهداية، وجعله يهتدي تفضلاً وإلزاماً لا خيار له فيه. فلا يعتقد أحد أن هؤلاء خارجون عن مشيئة الله عَزَّ وجل.

ثم يبين جَلَّ جلاله عظمته وسلطانه، فيقول تبارك وتعالى ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ إن ربكم عَزَّ وجل هو أحق بأن يتقيه العباد، خوفاً من عذابه، ومحبة في طاعته، ورغبة في ثوابه تبارك وتعالى. فإنه بما أنعم عَزَّ وجل على العباد من الإنعام العظيم يستوجب منهم التماس رضاه جَلَّ جلاله، شكراً وحباً له تبارك وتعالى. وأنهم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤٦١)

بما عرفوا من عذابه يستوجب مخافة قوة قهره وسلطانه وشدة عقابه لمن عصاه. وأنهم بما عرفوا من عظيم ثوابه ما يستوجب منهم الرغبة في ثوابه عَزَّ في علاه.

وأيضاً أن الله تعالى ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وربكم هو أهل لأن يغفر لمن استغفر وتاب وأناب إليه، فيستر الذنوب، ويمحوها مهما تعاظمت، لمن رجع إلى ربه طائعاً مذعناً له عَزَّ وجل. وفي هذا ترغيب لكل أحد مهما بلغت ذنوبه أن يتوب إلى ربه سبحانه وتعالى، ويُنيب إليه، ويُطيعه. فإنه أهل للمغفرة. فهو لا غيره أهل لأن يتقيه عباده، وأن يغفر لهم. فإنها خاتمة عظيمة، قد اجتمعت فيها قوة المشيئة، وعظمة الرحمة وجلالها بالمغفرة. اللهم اغفر لنا وارحمنا وتوب علينا وعلى جميع المسلمين إنك أنت التواب الرحيم يا رب العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة المدثر. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.